في
التنوير الإسلامي
«١٥»

النموذج الثقافي

تأليف
د. محمد عمارة

في التنوير الإسلامي ١٥

النموذج الثقافي

تأليف

د. محمد عمارة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨

اسم السلسلة: في التنوير الإسلامي.
اسم الكتاب: النموذج الثقافي
تأليف: دكتور / محمد عمارة.
تاريخ النشر: مارس ١٩٩٨.
رقم الإيداع: ٣٧٦٠ /١٩٩٧ .
الترقيم الدولي: I . S . B . N 977 - 14 - 0585 - 3
الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة – مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ – ٣٣٠٢٨٩ / ٠١١.
فاكس: ٣٣٠٢٩٦ / ٠١١.
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي – الفجالة – القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ – ٥٩٠٨٨٩٥ / ٠٢.
فاكس: ٥٩٠٣٣٩٥ /٠٢ ص.ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي – المهندسين – القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ – ٣٤٧٢٨٦٤ / ٠٢ فاكس: ٣٤٦٢٥٧٦ /٠٢.
ص.ب: ٢٠ إمبابة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد

على المستوى الإنسانى ، وفى مختلف الميادين ، ينهض «النموذج» بدور محورى فى تحديد «الأسوة .. والقدوة» التى تنهض بدور «البوصلة» المحددة والمرشحة لتوجهات الإنسان فى مختلف ميادين الحياة ..

ففى الأسرة «نموذج الأب» .. وفى الأمة «نموذج البطل» .. وفى التاريخ «نماذج الانتصارات» .. وفى العلاقات الدولية والإقليمية «نموذج الوطن» .. وفى العقائد والأيديولوجيات «نموذج الدين» .. إلى آخر «النماذج» التى تأسر الإنسان على توجُّه بعينه وطريق بذاته عند مفترق الطرق ، وتعدد الخيارات .. وفى اللحظة التى يتم فيها اختيار «النموذج» ، يحدث الإفصاح والإعلان عن انتماء «الذات» ، ومن ثم تميزها عن «الآخر» ، الذى عدلت عن اختياره «نموذجا» فى هذا الميدان من ميادين الاختيار ..

والميدان الثقافى ليس فقط مجرد واحد من هذه الميادين التى يتم فيها اختيار الإنسان «نموذجا» دون الآخر .. بل إن «النموذج الثقافى» يكاد أن يكون، بعد اختياره، والانتماء إليه، والولاء له، المعيار الذى يحدد ويرجح «النماذج» التى يختارها الإنسان فى العديد من المجالات والكثير من الميادين .. فالثقافة التى صنعت هوية الإنسان، هى الموجِّه

لاختياراته لنماذج الأسوة ومناهج القدوة والمثل والمعالم التى تجعله يوالى هذا ويعادى ذاك، وينشط لهذا المقصد ويعدل عن سواه، ويضحى فى هذا السبيل ولا يلتفت إلى ماعداه .. و «النموذج الثقافى» هو المحدد «لنموذج المستقبل» الذى يسعى الإنسان لصنعه، وتحقيقه فى الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه ..

وإذا كان الله ، سبحانه وتعالى ، قد خلق الناس جميعا من نفس واحدة ، فلقد اقتضت حكمته ، وحتى يتم استباق الناس على طرق الاستعمار للأرض ، وتنافسهم فى تحصيل المنافع ، وتدافعهم لحيازة الخيرات المادية والمعنوية .. شاء ، سبحانه ، أن تتوزع البشرية إلى تعددية فى الشعوب والقبائل والأمم والألسن والألوان والمناهج والشرائع ، ومن ثم فى القوميات والثقافات ..

وإذا كانت «الذات» إنما تُعَرَّف بالسمات الثوابت التى تميزها عن «الآخر» ، وليس بالمشترك الذى يجمعها بهذا «الآخر» ..

وبما أن واقع أمتنا العربية الإسلامية، الحديث والمعاصر، هو واقع الاحتكاك والتدافع الثقافى والحضارى مع النموذج الغربى تحديدا، ودون أى «آخر» سواه .. فإن الحديث عن «الذات» و «الآخر» ثقافيا، لابد وأن يقود إلى تحديد المعالم المميزة للنموذج الثقافى الاسلامى عن النموذج الغربى - دون أن يعنى ذلك إنكار ميادين المشترك الإنسانى العام فى العديد من العلوم والمعارف التى لا تدخل حقائقها وقوانينها وثمرات معارفها وتجاربها فى «المميز للذات الثقافية» ، وإنما تدخل فى «الجامع» الذى تتفاعل فيه وتتشارك «الذوات الثقافية» للإنسانية جمعاء ..

فالإسلام هو المكون لذاتيتنا الثقافية ، والمحدد لمعالم نموذجنا الثقافى ، وتميزنا عن «الآخر» الغربى قائم فقط حيث يكون التميز والافتراق .. الأمر الذى يجعل علاقة نموذجنا الثقافى - الذات الثقافية - بالآخر هى علاقة «التميّز .. والتفاعل» ، التى هى وسط عدل متوازن بين غلوّين : غلو الإفراط ، الذى يرى هذه

العلاقة علاقة «قطيعة .. وتضاد» .. وغلو التفريط ، الذى يراها علاقة «مماثلة .. ومحاكاة» ! ..

فكما تميز «البصمة» الإنسان عن بنى جنسه ، مع اشتراكه معهم فى جنس الإنسان ، كذلك تتميز الذات الثقافية للأمة عن الذوات الثقافية الأخرى ، بتميز النماذج التى يجمع كل منها معالم المغايرة والسمات الفارقة لنموذج ثقافى عن سواه ، وذلك دون إنكار أو إغفال لميادين الاشتراك الإنسانى فى كثير من حقائق وقوانين الكثير من التجارب والخبرات والعلوم والفنون ..

* * *

وهذه الحقيقة من حقائق علاقة «الذات الثقافية» بـ «الآخر الثقافى» - علاقة «التميّز .. والتفاعل» - لا «القطيعة .. والتضاد» .. ولا «المماثلة .. والمحاكاة» - قد غدت ، عبر التاريخ ، قانونا حكم التقاء واحتكاك وتدافع الثقافات فى سياق تدافع الحضارات ..

فالإغريق انفتحوا على المصريين القدماء ، لكن تأثرهم وقف عند ثمرات «العقل» دون أن يتجاوزها إلى عالم «الروح» و«الوجدان» ..

والمسلمون انفتحوا على الحضارة الهندية ، لكنهم أخذوا عن الهنود الفلك والحساب ، دون الفلسفات والثقافات .. وكذلك صنعوا فى انفتاحهم على الفرس ، عندما أخذوا عنهم التراتيب الإدارية ، ورفضوا مذاهبهم الفلسفية وعقائدهم الدينية .. وعن الرومان البيزنطيين أخذوا تدوين الدواوين ، ولم يأخذوا القانون الرومانى .. وكذلك الحال فى الانفتاح على تراث الإغريق ، فلقد أخذ المسلمون العلوم التجريبية التطبيقية المحايدة ، وأهملوا النظر فى

إلهيات اليونان ، بل وأهملوا النظر فى الآداب الإغريقية لما حملت من أساطير وثنيتهم ولما جسدت من روح الوثنية فى ذلك التراث . .

وذات القانون نراه فاعلا إبان انفتاح النهضة الأوربية على تراثنا الإسلامى ، فلقد أخذوا العلوم التجريبية ، التى طورها المسلمون ، وأخذوا إبداع أسلافنا فى المنهج التجريبى والملاحظة والاستقراء - وهو الذى فتح به المسلمون باب التجاوز للقياس الأرسطى - لكنهم - الأوربيون - لم يأخذوا نموذجنا الثقافى الإسلامى ، بل لقد أحيوا النموذج الإغريقى مع استلهامهم من تراثنا العلوم الطبيعية والمنهج التجريبى ، فنهضوا كامتداد متطور للإغريق والرومان ، ولم يقفوا من نموذجنا الثقافى الإسلامى موقف المحاكاة . . بل لقد كان تعامل النهضة الأوربية مع فيلسوفنا أبى الوليد ابن رشد - الحفيد- (٥٢٠ - ٥٩٥هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) نموذجا لإعمال هذا القانون الذى حكم العلاقة الصحية والطبيعية بين النماذج الثقافية المتميزة للأمم المختلفة . . فأخذوا «ابن رشد : الشارح لأرسطو» - لأن هذه بضاعتهم ردت إليهم - ورفضوا - بل وأصدروا مراسيم التحريم - على «ابن رشد : الموفق بين الحكمة الإنسانية وبين الشريعة الإسلامية» . . و «المتكلم ، الذى أقام العقيدة الدينية على العقلانية المؤمنة» و «الفقيه الذى كان يقضى بين الناس بشريعة الإسلام وفقهها» . . لأن هذا النموذج الثقافى الإسلامى - أو «الرشدية الإسلامية» - كان مغايراً للنموذج الثقافى «الرشدية اللاتينية» ، تلك التى استبدلت العلمانية باللاهوت ، وألهت العقل ، عندما أصبحت عبارة : «لاسلطان على العقل إلا للعقل» هى شعار فلسفة وفلاسفة التنوير ! . .

بل إن بواكير نهضتنا الحديثة - وخاصة تجربة مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى - تحت حكم محمد على باشا الكبير (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) - قد جسدت إعمال هذا القانون فى علاقة الذات الثقافية ونموذجها بالآخر الثقافى ونموذجه ..

فرفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) هو الذى دعا إلى التتلمذ على أوربا فى «العلوم الحِكْمِيَّة العملية .. والمعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقدم الوطنية ، لأنها - وإن ظهر الآن أنها أجنبية - هى علوم إسلامية ، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة»! .. فدعا الطهطاوى إلى التفاعل مع معارف وحقائق هذه العلوم ، مع إحياء النموذج الثقافى الإسلامى ، «بنشر السنة الشريفة ، ورفع أعلام الشريعة المنيفة»

بل لقد أكد الطهطاوى تميز النموذج الثقافى الإسلامى عن النموذج الأوربى ، عندما قال إن لهم فى «الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية .. وهم من الفرق المُحَسِّنَة والمُقَبِّحة بالعقل والنواميس الطبيعية وحدهما .. أما نحن المسلمين فليس لنا أن نعتمد على ما يُحَسِّنُه العقل أو يُقَبِّحُه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه .. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع»[1]

(١) انظر فى ذلك (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ١ ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ١١٤ ، ١١٥ . وجـ٢ ص ١٥٩ ، ٧٩ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

فعندما تكون العلاقة صحية، وقائمة على الاختيار الحر، وعلى التكافؤ، بين الحضارات، ينهض النموذج الثقافي بدور المعيار الذي يحدد نطاق «التفاعل.. والاستلهام» وحدود «التمايز.. والخصوصية»، فتكون العلاقة الصحية والطبيعية بين «الذات» وبين «الآخر» في الميدان الثقافي.

ولهذا الوضوح ، في تميز النموذج الثقافي الإسلامي عن النموذج الأوربي ، عند الطهطاوي ، وفي تجربة مصر على عهد محمد علي باشا الكبير ، رأينا الطهطاوي عقب عودته من باريس سنة ١٨٣١م يقدم إلى المطبعة مشروعين لقائمتين من الكتب : مشروع لإحياء أمهات كتب التراث الإسلامي .. ومشروع لترجمة معارف وعلوم التمدن المدني الأوربي الحديث ..

ووجدنا ، كذلك ، جميع المبعوثين الذين ابتعثتهم الدولة إلى أوربا - في عهود محمد علي وعباس وسعيد - يذهبون للتخصص في العلوم الطبيعية التي تغير الواقع ، ولم يذهب منهم مبعوث واحد ليدرس الإلهيات أو الآداب والفنون أو الإنسانيات التي تصوغ وجدان الإنسان وتشكل عمران النفس الإنسانية ، لأن هذه المهمة هي اختصاص النموذج الثقافي الإسلامي دون سواه! .[1]

فلما انتكست التجربة ، وهيمن الاستعمار ، انعكست الآية .. فحرمنا من العلم الأوربي الذي نحتاج ، وأُمطرنا بألوان النموذج الثقافي «الآخر» بدلا من نموذج «الذات» ! ..

(١) أنظر : عمر طوسون (البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس وسعيد) ص٢٣ ، ٢٤ ، ٢١٩ ، ١١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤م .

- «النموذج» هو «التصور» و«المثال»، الذي يتحول إلى «معيار» فارق ومميز في النسق الفكري، منظومة فكرية أو عقدية أو حضارية أو ثقافية عن غيرها من المنظومات المتميزة في «النموذج» و«التصور» و«المثال».
- و«الثقافي» هو جماع ما يعمر النفس الإنسانية ويصوغها ويهذبها، من سائر ألوان الإبداع والعطاء، إبداع الإنسان وعطاء المحيط، وهو «الثقافي» مع «المدني» الذي هو جماع ما يتمدن ويعمر به الواقع المادي، ويرتقي ويتهذب بمثلان جماع «الحضارة» و«العمران»، فالثقافة عمران النفس الإنسانية، والتمدن عمران الواقع المادي، ولذلك كان «الاشتراك الإنساني» في «التمدن» عمران الواقع المادي أكثر مما هو في «الثقافة»، التي هي عمران النفس الإنسانية، إذ فيها تتجلى الخصوصيات بين الأمم والحضارات، لاستعصاء النفس، ومن ثم مقومات تهذيبها وعمرانها على النمطية والقولبة والتكرار الوارد في عمران الواقع المادي.
- ولأن الإسلام كمنظومة عقدية، يكون من حولها نسق فكري قد مثل الرحم الذي ولدت منه الأمة الواحدة، والدولة الواحدة، والدار الواحدة، والصنعة التي صنعت حضارة الأمة ومنارتها عبر الزمان والمكان، وذلك فضلاً عن الوحدة في العقيدة والشريعة، حتى لكأنما قد خرجت أمته من بين دفتي قرآنه الكريم، لأن هذه هي المكانة المحورية للإسلام في حياة الأمة، فلقد صاغ إنسانها، وحدد له معالم الطريق لبناء العمران الدنيوي وتضمن

النجاة الأخروية. صاغ الإسلام لإنسانه وأمته المعاصر التي تولت الثقافة التي نهضت بمهام العمران والتهذيب للإنسان المسلم في خطابه التزامه بالنموذج والمعيار والمثال والتصور، وحتى في خطاب انحرافه عنه لأن الضمير الذي صاغه النموذج الإسلامي يظل وعسى أن الانحراف عن هذا النموذج هو الاستثناء الشاذ والحرام الذي ينتقص من تهذيب النفس وعمرانها أي من ثقافتها التي لا بد وأن تلتزم التصور وتتبع المثال.

تلك هي مكانة الإسلام في صياغة النموذج الثقافي للأمة.

ولعل الإسلام قد أبلغ على هذا الدرب صياغة النموذج الثقافي وصيغة بصيغته أكثر من المنظومات العقدية والفكرية الأخرى، دينية كانت أو وضعية، لأن الديني من تلك المنظومات قد وقف في الغالب عند مهام إخلاص الروح وتملكه السماء، بينما توجه الوضعي من هذه المنظومات الفكرية إلى "شئون الدنيا" دون سواها. أما الإسلام الذي مثل منهاجه شاملا وجامعا للروح والجسد، للفكر والمادة، للدين والدولة، لعالم الغيب وعالم الشهادة، للدنيا والآخرة، للذات والآخر، للفرد والطبقة والأمة، للتكاليف الفردية والكفائية (الاجتماعية)، حتى لقد جعل الاستمتاع خلال تربية الدنيا وطيبات الحياة عبادة لله، وصنف إماطة الأذى عن الطريق في شعب الإيمان. إن الإسلام، الذي مثل منهاجه الشامل هذا الروح السارية في الحياة الإنسانية، وفي محيطها الطبيعي، وفيما وراء الحياة والطبيعة، قد بلغ في صنع

الثقافة الإسلامية بصبغته المتميزة الدرجات التي لم تبلغها المنظومات العقدية الأخرى. لقد صاغ النموذج والمثال والتصور والمعيار الذي كان يتزامه من قبل الإنسان المسلم السبيل لأسلمة الثقافة، التي صاغت النفس المسلمة..

وحتى الأعراف التي يصنعها الإسلام أبناء يضبطها، ثم يجعلها مصدرا من مصادر التشريع. وحتى «الحكمة» التي هي الصوت البشري الذي يصل إليه العقل الإنساني، رأينا الإسلام يجعلها مناط للتكليف الشرعي، ويحدثنا عن أنها كالكتاب كلاهما تنزيل إلهي: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (1)..

لقد كانت الصياغة الثقيلة للإسلام هي تغيير النفس الإنسانية وصياغتها صياغة إسلامية. وذلك لتصوغ واقعها صياغة إسلامية كذلك، أي لتقوم العمران الإسلامي، في النفس والواقع، فتتحقق المقاصد الإلهية من وراء خلق الإنسان واستخلافه في الأرض لاستعمارها: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (2) ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..﴾ (3)

---

(1) [illegible] (2) [illegible] (3) [illegible]

تلك هي مكانة الإسلام في صياغة النموذج الثقافي للأمة الإسلامية.

* * *

وإذا كانت هذه هي خصوصية الإسلام، التي عظمت من دوره في صياغة النموذج الثقافي لأمته وحضارته، فإن في بناء هذا النموذج لعديد من «اللبنات» والتي تقف هذه الصفحات مراعاة للحيز والمقام، عند تقديم نماذج منها، تعين على تصور دور الإسلام مقارنا بالتصور الغربي خاصة في صياغة النموذج الثقافي المتميز للأمة العربية والإسلامية. فهي «لبنات» قد مثلت «خصوصيات» ميزت هذا النموذج الإسلامي في الثقافة عن غيره من النماذج الثقافية الأخرى.

[illegible] الإسلام [illegible] عقيدة التوحيد [illegible] في [illegible] الإلهية عن [illegible] وتركيب [illegible] مخلوقات [illegible] في [illegible] أقصى [illegible] الإنسان [illegible] (١) [illegible] (٢) [illegible] له كفوا [illegible] وهو سبحانه وتعالى [illegible] حتى [illegible] الإسلامي، كي [illegible] الإسلام [illegible] الإلهية، [illegible] الوصف [illegible] كل ما خطر على بالك فالله ليس كذلك.

فهو سبحانه [illegible] لكل تصورات الإنسانية عن هذه المخلوقات.

قدم الإسلام هذا [illegible] في مقابل اليهودية [illegible] بالتحريف [illegible] صورت الإله مصارعا؟ [illegible] إسرائيل وحدهم، وللشعوب الأخرى آلهتها الأخرى؟!

وفي مقابل [illegible] العنصرية [illegible] فسقطت في حلول التجسد وتعددية التثليث ؟! .

(١) الإخلاص ١ ٤

(٢) الشورى ١١

ولم يقف الإسلام بهذا التصور التنزيهي والتجريدي للتوحيد عند نطاق الاعتقاد الديني في ذات المعبود وإنما أشاعه روحاً سارية في ثقافة الإنسان المسلم وذلك عندما جعل من عقيدة التوحيد ثورة لتحرير الإنسان الموحد من العبودية لسائر الطواغيت. ففي العبودية للمعبود الواحد قمة التحرر من أسر واستعباد كل ما عدا الله. ومن هنا يحول التوحيد، ويتحول إلى حياة يحياها الإنسان دائماً وأبداً.

وليس فقط إلى تصور عند الشعائر والعبادات [illegible] صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٢).

وهذا التصور الإسلامي الذي يخلص العبودية لله الواحد في كل الميادين الدينية والدنيوية والأخروية [illegible] صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له [illegible] هو الذي ميز النموذج الثقافي الإسلامي بتصور متميز لنطاق عمل الذات الإلهية، تفردت به الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات.

- ففي الأرسطية اليونانية [illegible] التصور الذات الإلهية [illegible] مجرد خالق للعالم [illegible] خلقه وانتهت علاقته به [illegible] موكول إلى الأسباب الطبيعية [illegible] في [illegible]
- وفي الوثنية الجاهلية كان التصور لنطاق عمل الذات الإلهية قريباً من هذا التصور الأرسطي [illegible] فالوثنيون في الجاهلية لم يكونوا ينكرون الله خالقاً للمخلوقات [illegible] سألتهم من خلق السموات

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣

والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون (١) ». لكنهم كانوا يشركون معه الطواغيت والأوثان في تدبير العمران الدنيوي، فيلجأون إلى هذه الأوثان إذا أرادوا الحرب أو السلم، السفر أو الحل، الإقدام أو الإحجام الخ الخ فجعلوا الله خالقا ووفقوا لنطاق عمله عند الخلق وجعلوا تدبير العمران للشركاء والطواغيت

« فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا »[٢]

- وقريب من هذا التصور الذي يعزل الذات الإلهية عن تدبير العمران الإنساني، ويحرر سياسة هذا العمران من شريعة السماء قريب من هذا التصور جاء التصور اللاهوتي النصراني، عندما قال «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فحرر «قيصر» أي الدولة والمجتمع والعمران من قانون الله وشريعة السماء، جاعلا تدبير العمران إلى المرجعية الإنسانية وحدها.
- ولذلك كان التصور العلماني الغربي الوضعي والمادي طبيعيا في ذلك الإطار، فهو عندما رأى العالم مكتفيا بذاته والطبيعة تدبرها الأسباب المادية المركبة في ظواهرها وقواها، والدولة والاجتماع البشري يدبرهما ويسوسهما الإنسان بالعقل والتجربة إنما كان إحياء حديثا للتصور الأرسطي لنطاق عمل الذات الإلهية الخلق دون الرعاية والتدبير كما كان تصحيحا رد الكنيسة التي تجاوزت رسالة النصرانية،

---

(١) العنكبوت ٦٠ (٢) الأنعام ٣٦.

عندما جمعت السلطة الزمنية إلى السلطة الروحية ... ردها إلى نطاق التصور اللاهوتي برسالة نصرانيتها ونطاق عمل إلهها «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» [1].

- أما التصور الإسلامي فقد جاء متميزاً عن جميع تلك التصورات ... فالتوحيد فيه يفرد الذات الإلهية ، لا كمجرد خالق فقط ، وإنما هو الخالق والراعي والمدبر لجميع المخلوقات ... فالأمر والتدبير له ، سبحانه ، وليس الخلق فحسب ... ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ... قال فمن ربكما يا موسى (١) قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٢) ... قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين (١) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (٣) [2].

وبهذا التصور الإسلامي للتوحيد ونطاق عمل الإله الواحد تميز النموذج الإسلامي وسرى هذا التميز في الثقافة الإسلامية عندما صاغ هذا التصور المتميز النفس التي تصورت الذات الإلهية على هذا النحو من التنزيه والتجريد والتي رأته المدبر لكل المخلوقات والحاكم في مختلف ميادين العمران.

---

(١) الأعراف ٥٤

(٢) طه ٤٩ ، ٥٠

(٣) الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣

وإذا كان هذا التصور التوحيدي قد جعل الحكم والتدبير مع خلق الله سبحانه وتعالى، فإن نظرية الاستخلاف الإسلامية قد حددت مكانة الإنسان ونطاق عمله وآفاق حريته وقدرته واستطاعته في العمران البشري، الذي أحيا حياة أمته عندما استخلفه الله فيه.

فالتصور الإسلامي عن أن الحكم لله، وأنه [illegible] الوضوح أن الحكم لا لله من لا يعبدون إلا إياه ذلك الدين القيم [illegible]

لكن الله استخلف الإنسان لإقامة العمران في الأرض [illegible] فقال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة [illegible] أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها [illegible] وحتى ينهض الإنسان بتكاليف إقامة العمران، وأمانات الاستخلاف [illegible] بالاختيار والحرية والقدرة والاستطاعة [illegible] السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا [illegible] فكانت مكانته هي مكانة الخليفة، المتمتع بالحريات، والمالك للقدرات، لكنها حريات

---

١ [illegible]
٢ [illegible]
٣ [illegible]
٤ [illegible]

وقد [illegible] مكلف بأن يصطفيه [illegible]
الاستخلاف [illegible] المهيمن [illegible]
[illegible] لا [illegible]
والذي لا يسقف لحرياته وقدرته . وإنما هو خليفة لسيد هذا
الوجود [illegible] الأرض [illegible]
[illegible] الاستخلاف [illegible]
شريعة الله

ولقد قدم الإسلام هذا التصور [illegible]
خلافة والاستخلاف ، فتمت [illegible] النموذج الإسلامي [illegible]
[illegible] الإنسان [illegible] الوجود ، [illegible]
[illegible] لا يسقف لحريته [illegible]
[illegible] من وراء هذه الطبيعة [illegible]

كما [illegible] هذا النموذج الإسلامي ، في مكانة الإنسان [illegible]
من التصورات الفلسفية [illegible] والإشراقية [illegible]
[illegible] لا [illegible] إلى خلاصه إلا [illegible]

ولقد عبر الإمام ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦هـ ٩٩٤ - ١٠٤٦م) [illegible] الاستخلاف [illegible]
الإنسان [illegible] ، كما [illegible] عن الله [illegible] حكم [illegible]
[illegible] من حكم الله [illegible] حكم [illegible]
الله[19] فحكم الإنسان وخلافته هما حكم من الله [illegible] حكم
وقضى باستخلاف الإنسان في إقامة العمران

وكما [illegible] التصور التوحيدي الإسلامي [illegible] الاعتقاد في
علاقة الإنسان بخالقه ، [illegible] في ثقافة الإنسان [illegible] كذلك
كان الحال مع نظرية الاستخلاف .

● فحقوق الإنسان التي تقع الإسلام بأرجائها إلى مراتب الفرائض والواجبات والضرورات هي حقوق الإنسان الخليفة، ولذلك فهي محكومة بحقوق الله، وليست كالحال في التصورات الأخرى، محكومة فقط بالمصلحة الدنيوية والمنفعة المادية، بل إن المصلحة ذاتها في التصور الإسلامي، لا بد وأن تكون «شرعية معتبرة»[1]، فتسود عقد وعهد الاستخلاف، المتمثلة في حدود الله من إحلال وإحرام الدنيا، هي الضابط والمثقف لهذه الحقوق، لأن صاحبها خليفة ونائب ووكيل، وليس سيداً لها بوجود.

● وحظ الإنسان من الثروات والأموال، وعلاقته بها وموقعه منها، هو موقع الخليفة المستخلف فيها، وحريته في الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة بسود عقد وعهد الاستخلاف، ذلك أن المالك الحقيقي مالك الرقبة في هذه الأموال، هو خالقها سبحانه وتعالى، وللإنسان فيها مكانة الخليفة والنائب والوكيل، له فيها ملكية المنفعة المجازية، وحرية الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة بحدود الله في الحيازة، وفي الإنفاق، وفي التكافل الذي يحقق وحدة الجسد الإسلامي، الخ. ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ (٧)﴾[1]

---

(١) الحديد: ٧

- وإذا كانت الأمة والجماعة هي المستخلفة لله سبحانه وتعالى فإن «الدولة» في النموذج الإسلامي هي دولة خلافة أي مستخلفة عن الأمة للنهوض بالمهام التي استخلفتها الأمة فيها. فتميّز التصور الإسلامي «للدولة» أيضاً تبعاً لتميز هذا النموذج بنظرية الاستخلاف. ولذلك، لم يكن صدفة أن يطلق المسلمون على نظام الدولة منذ بعض الوقت دولة خلافة، بل إن حديث النبوي قد شهد بهذا التمييز بهذا النظام عندما قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، إنه سيكون خلفاء» [1]. وبدولة خلافة تكون حراسة الدين، وسياسة الدنيا بهذا الدين.
- وكما استخلف الله الإنسان لعمارة الدنيا، فإنه قد كلّفه بإقامة الدين: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» [2]. فكان مستخلفاً في إقامة الدين وفي بناء العمران، على النحو الذي يكون فيه الدين سائساً للعمران ويصير فيه العمران أساساً لإقامة الدين. وعن هذه الحقيقة من حقائق التصور الإسلامي لعلاقة العمران بالدين، يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ/١٠٥٨

---

(١) رواه البخاري وابن ماجة والإمام أحمد.
(٢) الشورى: ١٣.

[illegible]

شرط لنظام الدين[1]»

وهكذا يتميز التصور الإسلامي في علاقة الدين بالعمران الدنيوي على النحو الذي يقيم علاقات «جدل» و«ارتفاق» بينهما، كما لم يوجد في تصور آخر من التصورات التي سقطت في الثنائيات المتقابلة والمتناقضة. كما عد هذا التصور الإسلامي المتميز سمة شائعة في النموذج الثقافي الإسلامي أميز النظرة للدين وللعمران كليهما عن نظيرتها في الأنساق الثقافية الأخرى.

[illegible]

٢ والتعددية

إن جماع هذا الوجود في النظرة الإسلامية، والتصور الثقافي الإسلامي هو الحق، والخلق خالق، سبحانه وتعالى، والكون وعوالم المخلوقات، الموجد والموجودات، المحدث والمحدثات، هذا هو جماع الوجود في نموذج التصور الثقافي الإسلامي.

وإذا كان هذا التصور قد بلغ قمة التنزيه والتجريد في وحدانية الحق، فإنه قد أمن بأن التعددية هي السنة والقانون في سائر عوالم الخلق التي فطرها خالقها على الثنائية والازدواج والاشتراك والارتفاق فطرة وسنة لا تبديل لها ولا تحويل. فالإيمان بالتعددية في ظواهر وعناصر الكون المادي، وفي مكونات الاجتماع الإنساني قسمة أصيلة وسمة بارزة في النموذج الثقافي الإسلامي والوعي بهذه الحقيقة لما يمثل حجر زاوية. وهكذا يجب أن يكون في ثقافة إنسان العربي والإسلامي.

فتعددية الازدواج سنة إلهية حكمت خلق الله جميع المخلوقات، سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون (٣٦)[1].

وتعددية الذكر والأنثى سنة إلهية قد حكمت خلق الله للأنفس والبشر، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى[2].

وفي بقية هذه الآية الكريمة التي تحدثت عن سنة التعددية في خلق الإنسان من ذكر وأنثى، إشارة إلى سنة أخرى هي تعددية الإنسانية والبشرية إلى شعوب وقد أثرت أي تعددية في الأمم

---

١) يس: ٣٦

٢) الحجرات: ٣

والجماعات ... وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١٣) ﴾[1]

وكما اقتضت السنة الإلهية تعدد البشر إلى شعوب وقبائل وأمم وجماعات، كذلك اقتضت تعددتها في القوميات التي تحددها تعددية الألسن واللغات، وفي الأجناس التي تشير إليها الألوان ... سنة حاكمة وقانونا عاملا وآية من آيات الله في الخلق ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين (٢٢) ﴾[2]

وإذا كانت سفينة نوح عليه السلام قد مثلت الحياة الناجية من الطوفان، فلقد حكمت التعددية والازدواج عناصر ومكونات هذه الحياة ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ﴾[3] .. ﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك .. ﴾[4]

١ الحجرات ١٣
٢ الروم ٢٢
٣ هود ٤٠
٤ المؤمنون ٢٧

وكما قام الخلق على التعددية، كذلك حكمت سنتها وساد قانونها في «عالم الأفكار» فالاختلاف في الشرائع والمناهج، والتعددية في المذاهب والتيارات الفكرية، هي الأخرى سنة إلهية لا تبديل لها ولا تحويل، في «عالم الأفكار» «كعالم الخلق» سواء بسواء ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم (١)﴾

﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٤٨)﴾(٢)

فالتعددية بين الأمم في الشرائع والمناهج سنة إلهية، تثمر الابتلاء الحافز على الاستباق على طريق الخيرات، بل إن هذه التعددية، وهذا الاختلاف قد بلغ برأي العلماء من مفسري هذه الآيات القرآنية إلى درجة اعتباره «حكمة الخلق» فقالوا «وللاختلاف خلقهم»(٣) لله، سبحانه وتعالى!

وإذا كانت التعددية هي منطلق التدافع الفكري والاجتماعي والحضاري، فإن هذا التدافع الذي لا وجود له بدونها هو سبب الصلاح والإصلاح لما يحدث في الاجتماع الإنساني من

---

(١) هود ١١٨، ١١٩ (٢) المائدة ٤٨

(٣) القرطبي، جامع أحكام القرآن، جـ ٩ ص ٥ ... طبعة الكتب المصرية

[illegible]

[illegible]

[illegible]

فيها اسم الله كثيرا ﴾[2]

[illegible]

[illegible] ربكم فاعبدون [illegible][3] . فإن هذه

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفروع والمذاهب ومدارس الفكر وتيارات الاجتماع .. ففي الفكر

[illegible]

[illegible]

[illegible] لا يعني [illegible] ولا [illegible]

[illegible] في [illegible] الإسلامي [illegible]

والأصول التي توحد [illegible]

هي [illegible] التي لا تعدد فيها [illegible] التعددية [illegible]

[illegible] التعددية الفكرية [illegible] في الاجتهاد

---

(1) [illegible] ٢٥ (2) الحج ٤٠ (3) الأنبياء ٩٢

بإطار وحدة التصديق بالبلاغ القرآني والبيان النبوي لهذا البلاغ، فإن معايير الاختلاف في هذا الاجتهاد هي: الصواب، والخطأ، والنفع، والضرر، وليس الإيمان، والكفر، لأن الإيمان، والكفر، هما معايير الاختلاف فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، وهو ما لا يجوز فيه الاختلاف، لأنه الجامع لوحدة الأمة التي هي فريضة الهيئة وبدونها لا يكون معنى للتعددية والاختلاف.

وكذلك الحال في الحياة الاجتماعية، فإن التنوع في الأفراد والطبقات بإطار الوحدة القائمة على اتفاق الأفراد والطبقات كتنوع أعضاء الجسد في الحجم والنور والاحتياجات، فقد أتت بإطار وحدة الجسد، التي تجعل سائر الأعضاء تتداعى بالسهر والحمى لأي عضو إذا هو اشتكى؟!..

ولعل في الصورة التي سمعها الإمام علي بن أبي طالب بهذه التعددية الاجتماعية في العهد الذي بعثه على مصر الأشتر النخعي ٣٧هـ/٦٥٧م، ولعل فيها التجسيد لعلاقة التنوع بالوحدة والتعددية بالجامع، والاتفاق الذي يمثل العلاقة بينهما، فقد قال الإمام علي وهو يوصي عامله: واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كُتّاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنها عُمّال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة، فالجنود حصون الرعية وسبل الأمن، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج لهم من الخراج، ثم

لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات.

وهكذا تبلغ التعددية التي هي تنوع في إطار الوحدة في الثقافة الإسلامية مبلغ السنة الإلهية التي لا تبديل لها ولا تحويل، في سائر ميادين وعوالم المخلوقات، المادية والحيوانية والإنسانية وفي عوالم الأفكار كما تبلغ الوحدانية في تصور ذات الإلهية قمة التنزيه والتجريد.

ولا شك أن الوعي بهذه الحقيقة، وبأبعادها وحيويتها في الثقافة الإسلامية سيثمر العديد والجليل من الثمرات.

٤ ودوائر الانتماء

وعلى عكس الثقافات التي أقامت التناقضات بين دوائر الانتماء «الوطنية» و«القومية» و«الحضارية» لأنها اعتمدت «الأرض» وحدها تميز ومحدد للوطنية والوطن، والعرق والجنس تميز ومحدد للقوم والقومية، على عكس هذه الثقافات، يأتي النموذج الثقافي الإسلامي انطلاقاً من الفطرة لتسلك هذه الدوائر كدرجات مترابطة ومتكاملة في سلم الانتماء الأكبر الذي يضم دوائر فرعية ليس بينها وبين جامع الانتماء الأكبر تناقض أو تضاد.

فالفطرة الإنسانية السوية، التي فطر الله الناس عليها، قاضية بوجود ولاءات وانتماءات متعددة للإنسان لا تناقض بينها إذا حلت مضامينها ومفاهيمها مما يؤدي إلى تناقض أو تضاد. فللإنسان ولاء وانتماء إلى أهله وعشيرته لا يتناقض مع ولائه وانتمائه إلى الوطن

---

١) (نهج البلاغة) ص ٣٣٧ طبعة دار الشعب القاهرة

والاقليم الذي ولد وتربى ونشأ فيه كما أنه لا تناقض بين الانتماء للأهل والوطن وبين الانتماء والولاء للقوم الذين يحددون اللغة دائرتهم وكذلك الحال مع الانتماء إلى الدائرة الحضارية التي قد تجمع العديد من الأوطان والعديد من اللغات والقوميات فإذا حلت مفاهيم مصطلحات الوطن والقومية من عصبيات العرق والجنس وإذا انحدت مكان الانتماءات الفرعية في إطار الانتماء الجامع الانتماء الحضاري الذي يحدد الإسلام دائرته في حال أمتنا العربية والإسلامية فإن التناقض والتضاد سينتفيان في النموذج الثقافي الإسلامي بين دوائر الانتماء والولاء

إن الإسلام وهو الصبغة التي صبغت ثقافة الأمة يجعل الانتماء إليه والولاء له الجامع الأكبر والأشمل والأول للإنسان المسلم ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (١) ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ (٢)

فالنبي ﷺ أي الرسالة والإسلام أولى بالمؤمنين من أي

(١) التوبة ٢٤ (٢) الأحزاب ٦

ولاء ... رغم حر ... وهي ... لأنه ... ولاء ... على ... أو
... ...
... ...
... ...

الثقافي الإسلامي دوائر الانتماء للأهل، والوطن، والقوم
وجامعة الإسلام. فتجاوزت الوطنية مع جامعة الإسلامية،
عندما برئ الانتماء الإسلامي من «عصبية جاهلية» و
«جنسية» بقوميات العنصرية التي سادت في حضارات
أخرى. ووجدنا الإمام محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩
١٩٠٥م) يفتي «بأن وطن المسلم في البلاد الإسلامية هو الحل
الذي يتولى الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعيشه، ويرافقه
مع أهله، إن كان له أهل، ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد
الذي نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما
يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات، وإنما بلده ووطنه الذي
يجري عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذي يشمل إقامته
ويستقر فيه، رعية الحاكم الذي يقيم تحت ولايته، ذمة سواء من
سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم ما لهم وعليه ما
عليهم، لا يحد عنهم شيء إلا خاص ولا عام».

أما الجنسية فتعبر عنها عند غير المسلمين «الكنسولاسيون
[illegible]» فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام
تجري عليهم إلا في خاصتهم ولا عامتهم، وإنما جنسية عند الأمم
الأوروبية تشبه ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو ارتباط أهل
قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك
الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه، وقد كان
لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يتداولونها عن سواهم.
جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها، وسوى بين

الناس في الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر في الحقوق ولا في الأحكام، فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة، فقد قال ﷺ: «إن الله أذهب عنكم عُبَّيَّة الجاهلية» (أي عظمتها) وفخرها بالآباء، وإنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»[1]. وروى كذلك عنه: «ليس منا من دعا إلى عصبية»[2].

وبالجملة، فالاختلاف في الأصناف البشرية، كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي، مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجوه، وما كان مصريا وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجوه.

وأما حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكابيتولاسيون»، فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة، هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية على اختلاف مذاهبها، لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره[3]».

---

١) رواه أبو داود.

٢) وفي البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد: «ليس منا من دعا بدعوى الجاهلية».

٣) تاريخ هذه الفتوى ٩ رمضان سنة ١٣٢٢ هـ نوفمبر سنة ١٩٠٤م. الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج٢ ص ٥٠٥ - ٥٠٨ [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

وبهذا جمع الإسلام، في نموذجه الثقافي، بين وحدة دار الإسلام وبين تمايز الأوطان فيها، وتجاوزت فيه الوطنية اللاعنصرية والأممية الحضارية، لا الأممية الطبقية التي ناصبت الوطنية والقومية العداء؟!..

وبهذا يقدم الإسلام نموذجاً ثقافياً متميزاً في دوائر الانتماء، انطلاقاً من الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها

٥ ومصادر والمعرفة

وإذا كان النموذج الثقافي الإسلامي، بالنسبة لأمتنا، هو «الذات» على حين مثل ويمثل النموذج الثقافي الغربي، بالنسبة لنا، «الآخر» منذ بدء الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة بوطن العروبة وعالم الإسلام قبل قرنين من الزمان فإن الوعي بتمايز «الذات» عن «الآخر»، في «مصادر المعرفة»، هو أمر ضروري في اكتشاف منطلقات هذا التمايز بين نموذجي الثقافة الإسلامية والعربية

لقد أسس الغرب نهضته الثقافية الغربية الحديثة والمعاصرة على «المذهب الوضعي»، وذلك إبان ثورة فلسفة التنوير الأوربية على الكنيسة والمقدس واللاهوت و«الوضعية» Positivisme هي المذهب الذي يرى أن الفكر الإنساني لا يدرك إدراكاً حقيقياً سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، وأن المعرفة الحقة هي معرفة الواقع، وأن الحق هو ثمرة التجربة وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتها وتنظيمها، وأن العلوم

التجريبية هي المثل الأعلى في اليقين، أما غير الظواهر المحسوسة فوهم، وإن تاريخ العقل قد مر بحالات ثلاث: حالة لاهوتية، وحالة ميتافيزيقية، وحالة واقعية هي الوضعية التي تأسس عليها النموذج الثقافي والمعرفي العربي الحديث.(١)

فالفلسفة الوضعية، ومن ثم نموذجها الثقافي، قد أقامت المعرفة على مصدر واحد هو الواقع المادي وحقائق عالم الشهادة، لأنها بيت التنوير العربي، الذي أحل العقل والعلم والفلسفة محل الله والدين واللاهوت. ورأى الوضعيون أن العالم مكتفي بذاته، ومن ثم فإن واقعه هو المصدر الوحيد للمعرفة الحقة.

لكن التصور الإسلامي، ونموذجه الثقافي، لم يقف بمصادر المعرفة عند العالم فقط، والواقع وحده، بل لقد تحدث القرآن الكريم عن أن هذا المصدر الواقعي لا يفي وحده بتفسير حقائق المعرفة، عبر تاريخ المعارف الإنسانية. فقال: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٢) ﴿يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ (٣) ﴿ولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ (٤) ﴿ولم يسيروا في الأرض فينظروا

---

(١) المعجم الفلسفي، وضع مجامع اللغة العربية، القاهرة، طبعة سنة ١٩٧٩م.
(٢) المعجم الفلسفي، وضع [illegible] القاهرة سنة ١٩٧١م.

كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (١) ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون (٢) الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون (٣)

فالمعارف ظاهر الحياة الدنيا وعالم الشهادة الوضعية وحدها لا سبيل إلى معارف وحقائق خلق الله السموات والأرض وما بينهما ومعارف لقاء الله في الدار الآخرة بعد هذه الحياة الدنيا ولا سبيل إلى تفسير عاقبة الأمم التي أخذها الله بذنوب تكذيبهم الرسل وظلمهم لأنفسهم مع ما كانوا عليه من قوة وعمران إلا تفسير هلاكهما بمعارف الواقع المادي وحدها لا سبيل إلى تفسير هذه العواقب بمعارف عالم الشهادة وحدها فنحن هنا أمام سنن غير معتادة لا سبيل إلى معرفتها بحقائق الواقع المادي وحدها.

ولذلك فإن النموذج الثقافي الإسلامي في مصادر المعرفة وإن لم يهمل عالم الشهادة والواقع المادي، كمصدر للمعرفة، فإنه لم يكتف بهذا المصدر، وإنما أضاف إليه عالم الغيب، وبناء السماء، وكتاب الوحي، والأدلة والمعارف والحقائق السمعية مصدر للمعارف التي لا تصدر عن الواقع المادي ولا يستقل العقل بإدراكها، ولا تخضع لتجارب الحواس. فأقام هذا النموذج الإسلامي ثقافته على ساقين اثنين، واعتمد للمعارف مصدرين: كتاب الوحي المسطور، وكتاب

(١) الروم ٦ - ١١

يكون المنظور، الأمر الذي ضمن التوازن للنموذج الثقافي الإسلامي وذلك بدلا من إقامته على ساق واحدة، كما هو الحال في النموذج الثقافي الذي أثمرته الوضعية الغربية.

فإذا كانت ثقافة التنوير الغربي قد أقامت معرفتها على حقائق الواقع المادي وحدها، لأن تنويرها واستنارتها قد رأت العالم مكتفيا بذاته عن المدبر المفارق لهذا العالم، فإن للاستنارة الإسلامية آفاقا أرحب ونطاقا أشمل وثمرات مغايرة. فليس العالم المادي هو وحده مصدر فلسفة التنوير وثقافة الأنوار، لأن الله، سبحانه وتعالى، «نور» ﴿الله نور السموات والأرض﴾ [1] والقرآن الكريم «نور» ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا﴾ [2] والرسول، ﷺ «نور» ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ [3] فنبأ السماء النبأ العظيم ليس «الوهم» الذي يمثل طور طفولة العقل البشري السابقة على الميتافيزيقا وعلى الوضعية كما تصورت فلسفة التنوير الغربي بصرانيتها. وإنما هذا النبأ العظيم (برهان من ربكم) و(نور)، والمستنير به له تنويره الإسلامي القائم على آيات كتابي الوحي والكون جميعا وليس على معارف الواقع المادي وحدها دون سواها..

(١) النور: ٣٥ (٢) النساء: ١٧٤ (٣) المائدة: ١٥

وكما مثل النموذج الثقافي الإسلامي، في مصادر المعرفة، عند مقارنته بالآخر الغربي، إضافة أقامته على ساقين، وضمنت له التوازن، فإن هذا النموذج الإسلامي في سبل المعرفة، قد صنع ذلك أيضا..

فعلى حين اعتمدت الوضعية الغربية «التجربة» سبيلا أوحد للمعرفة الحقة، جاعلة «العقل» مسبقا بين معطيات «التجربة» ومنظما لها.. فإن النموذج الإسلامي في الثقافة قد اعتمد سبل المعرفة أربع «هدايات» هي «العقل» و«النقل» و«التجربة» و«الوجدان»، لا باعتبارها سبلا متجاورة ومستقلا كل منها عن الآخر، وإنما باعتبارها سبلا متعاونة ومتعاضدة ومتفاعلة في تحصيل معارف وحقائق وسنن وقوانين كتابي الوحي والوجود، واكتشاف آيات الله في الأنفس والآفاق..

وهكذا مثل النموذج الثقافي الإسلامي، ويمثل إذا ما قورن بالآخر الغربي، إضافة، لا انتقاصا جعلت وتجعل هذا النموذج الثقافي الإسلامي أوفى لتحصيل المعارف جميعها، ومن مختلف مصادرها، وليس فقط ما يدرك منها بتجارب الحواس

وعلى حين أنّه التنوير الغربي «العقل»، وجعل براهينه النقيض «للنقل» والوحي والدين، فدعى فلاسفته إلى تحرير العقل من سلطان الدين، وإعمال العقل دون معونة من الآخرين، وجعل السلطان المطلق للعقل، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلا للعقل وحده»، فجاءت عقلانية التنوير الغربي، ونموذجه الثقافي، وضعيه ومادية، فإن النموذج الثقافي الإسلامي الذي سلك العقل، كأحد الهدايات، مع «النقل» و«التجربة» و«الوجدان»، لم تعرف هذه المقابلة المتناقضة بين العقل و«الإيمان الديني»، بل لقد قدم هذا النموذج الثقافي «عقلانية مؤمنة»، حث عليها الدين، وجعلها مناط التكليف، والحكم الذي به يتبين الإنسان ما في القرآن من محكم ومتشابه، بل وسبيل معرفة الذات الإلهية التي تمثل جوهر الإيمان الديني!..

لقد عقد النموذج الثقافي الإسلامي أواصر الاتفاق بين «العقل» و«الشرع»، وتبرمت ذلك أعرض تيارات الفكر الإسلامي انتشارا وتأثيرا في النموذج الثقافي الإسلامي، حتى قال الإمام الغزالي: «إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر، ما نُوّابه إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من

د. مراد وهبة: ما حل إلى التنوير، ص ٦٧، ٦٩، ٧٥، ٧٩، ١٨٩، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م

يعقل في تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ما أتوا به من حيث الضمائر فمثل أولئك بين التفريط ومثل هؤلاء بين الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط. فمثال العقل النظر السليم عن الآفات والأداء ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء فالخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الاعتناء فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان فالعقل مع الشرع نور على نور»[1].

وهكذا تميز النموذج الثقافي الإسلامي «بالعقلانية المؤمنة» التي أحيت بين «العقل» وبين «الشرع»، جاعلة منهما «نورا على نور» وجاعلة منهما الأمل واحد منهما دون الآخر ذاتي التحسين والتقبيح. وبعبارة رفاعة الطهطاوي (٢١٦ - ٢٩ هـ/١٨٠١ - ١٨٧٣م) «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع وليس بنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل ويقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه».

وإن علمنا أن الطهطاوي قد قال ذلك في معرض نقده للنموذج الثقافي الوضعي الغربي «نموذج الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب» وفي سياق رفضه [illegible] هذا النموذج الوضعي حتى لقد قال إنه «لا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي [illegible]

[1] [illegible] ص ٣٠٢ طبعة القاهرة [illegible] تاريخ

إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي حدود فيسعى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة»[1].

إذ علمنا ذلك أدركنا تميز النموذج الثقافي الإسلامي، عن النموذج العربي، بهذه «العقلانية المؤمنة»، التي جمعت بين «العقل» و«الشرع» ولم تقف عند العقل وحده كحال النموذج الوضعي والمادي أو عند «الوجدان» وحده كحال النموذج «الباطني»، الذي ساد في فلسفة «العوض» و«الإشراق[2]»..

(١) عمان الكامل لرفاعة الطهطاوي، جـ٢ ص ٣٢ - ٤٧٧ - ٣٨٧، دراسة وتحقيق د. محمد عمارة، طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م

(٢) العوضية: فلسفة الخلاص بالمعرفة، والإشراق: فلسفة الهبة لا الكسب وكلاهما لا يقيمان للعقل وزنا

٨ ومكانة المرأة من الرجل:

في النموذج الثقافي الإسلامي كما صاغه البلاغ القرآني وجسده البيان النبوي تجربة حية في مجتمع المدينة، على عهد رسول الله ﷺ، نجد المساواة بين المرأة والرجل تامة وكاملة في الخلق والتكريم والتكليف والحساب والجزاء.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾[1].

﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾[2].

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم (٧١)﴾[3].

﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[4].

---

(١) النساء ١
(٢) الأعراف ١٨٩
(٣) التوبة ٧١
(٤) النحل ٩٧

﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم (٢٢٨)﴾(١)

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع عليهم وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على بيت سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(٢).

لكن هذه المساواة في النموذج الإسلامي ليست مساواة «بين المماثل»، كما هو حالها في النموذج الثقافي الغربي، وإنما هي مساواة «الشقين المتكاملين»، مساواة في الخلق والتكريم والتكليف والحساب والجزاء، مع مراعاة الفطرة التي ميزت بين الأنوثة والذكورة، ليكونا شقين متكاملين، يحقق تكاملهما سعادة النوع الإنساني، ولا يكونا «بدين متماثلين»، فتكون المساواة تناحر الشقي به الفريقان، وتمسح به الفطرة التي فطرهما عليها الخالق سبحانه وتعالى.

ذلك هو النموذج الثقافي الإسلامي لمكانة المرأة من الرجل، الذي تميز عن نموذجها في الثقافة الغربية، والذي لا علاقة له بالتقاليد التي ظلمت المرأة، والتي يحسبها أصحابها، زورا وبهتانا، على الإسلام؟!

---

(١) البقرة: ٢٢٨.

(٢) رواه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

وإذا كانت «التعددية» - كما سبق الحديث - هي سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل، فإن وجود «الآخر» المتميز عن «الذات»، والقبول به، والتعايش معه هو القانون.

ولهذه الحكمة، رفض النموذج الثقافي الإسلامي - ويرفض - منهاج «الصراع» سبيلاً لحل التناقضات بين الذات والآخر، لأن «الصراع» يعني أن يصرع طرف الطرف الآخر، وينفرد بالميدان، فتزول التعددية بين الفرقاء المتمايزين. هذا هو «الصراع» - وتلك هي الدلالة القرآنية المصطلحة - ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (١) فهل ترى لهم من باقية (٢)﴾.

وبدلاً من «الصراع» الذي لا مكان معه للتعددية، والتعايش بين «الذات» و«الآخر»، يزكي النموذج الثقافي الإسلامي لحل التناقضات بين الفرقاء المختلفين، منهاج «التدافع»، الذي هو حراك يعدل المواقف والمواقع، مع المحافظة على بقاء التمايز والتعددية دائماً وأبداً: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣)﴾[٢]. بل إن الدفع والتدافع هو منهاج الحفاظ على التعددية

(١) الحاقة: ٧، ٨.
(٢) فصلت: ٣٤.

حتى في الشرائع الدينية * ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز (١) *

وكما جعل النموذج الثقافي الإسلامي من وجود «الآخر» السبيل لتميز «الذات»، ودعا إلى تعددية التعايش بين الفرقاء المتمايزين، رأيناه يرسم معايير «الولاء» و«البراء» بين «الذات المسلمة» وبين «الآخر غير المسلم»، فبيننا وبين «الآخرين» علاقات «البر» و«القسط» دائما وأبدا، إلا إذا قاتلونا في ديننا أو أخرجونا من ديارنا، أو ظاهروا على هذا الإخراج لنا من الديار الإسلامية، وعند ذلك فقط لا «بر» ولا «قسط» مع هؤلاء «الآخرين»، وإنما هو الجهاد لهم، على امتداد وتنوع صنوف الجهاد: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (٢) إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون (٣) *[٢] وإذا كان الإسلام عقيدة صنعت حضارة وميزت ثقافة وتاريخا ووحدت أمة، فإن جوامعه

(١) الحج ٤٠
(٢) الممتحنة ٨ ، ٩

الحضارية والثقافية والتاريخية قد أدخلت غير المسلمين، من الذين أطلبهم دولته، في «الذات المسلمة حضاريا»، فقامت وحدة في الأمة، مع تعددية في الملل والشرائع داخل الأمة الواحدة!

١٠- والتحديد والاجتهاد:

في علاقة «الحاضر»، «الماضي»، و«الجديد»، «القديم»، هناك نماذج ثقافية ثلاثة، فيها طرفا غلو، وبينهما الوسط العدل المتوازن الذي يزكيه الإسلام:

(أ) هناك غلو الإفراط الذي يمثله الجمود والتقليد، ذلك الذي لا يميز، في الاعتصام بالماضي، بين الثوابت وبين المتغيرات، بين الإلهي وبين البشري، بين المناهج وبين التجارب والتطبيقات فيضفي القداسة والثبات على الماضي جميعه، حتى ليكاد أهله أن يهاجروا إليه مديرين ظهورهم للحاضر والمستقبل والجديد.

(ب) وهناك غلو تفريط «الحداثة» بالمعنى الغربي وهي التي أثمرتها فلسفة التنوير الغربي اللادينية، والتي أقامت قطيعة معرفية مع الدين، عندما عزلت شرائعه عن ضبط شئون العمران، وحررت السلوك البشري من أحكامه، وحالت بين السماء وبين تدبير الأرض والعالم وكما يقول أحد دعاتها: «فإن التنوير قد مثل القطيعة الإبستمولوجية الكبرى التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكويني وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير».

---

١) (ميل بولا: الحرية والعلمية، حرب شطري قريب ومبدأ الحداثة) منشورات سيرف باريس سنة ١٩٨٧م. والنقل عن هاشم صالح: مجلة الوحدة التي تصدر بالمغرب، عدد فبراير، مارس سنة ١٩٩٣م

(ج) وبين غلوى الإفراط والتفريط - فى علاقة الحاضر بالماضى، والجديد بالقديم - يأتى النموذج الثقافى الإسلامى، بوسطيته المتوازنة، فيعتمد «التجديد»، الذى هو تطور من داخل النسق، يميز بين الثوابت والمتغيرات فى الموروث، فيفتح الباب للتطور مع الاحتفاظ بالمعالم والسمات التى أعطت وتعطى النسق الحضارى خصوصيته المميزة له عن الأنساق الحضارية الأخرى.. فيواكب كل المستجدات، دون أن تتبدل «هويته»، أو يفقد «بصمته»، التى تمثل «مبادئه» و «مناهجه» و «حِكَمه» و «مقاصده»..

ويعتمد «الاجتهاد»، الذى يستنبط «أحكام الفروع» من «المبادئ والأصول»، فيمد الأغصان الجديدة لتظلل المساحات المستجدة، فى ارتباط بالأصول التى تسرى روحها وتشيع ضوابطها وتحقق مقاصدها فى كل اجتهاد جديد.. فيتم به «النمو» الدائم، مع الاحتفاظ «بالشخصية» التى يمثلها هذا النسق الفكرى والحضارى..

وفى النموذج الثقافى الإسلامى يبلغ «التجديد» مرتبة «السنة.. والقانون»؛ لأن تمثيل هذا النموذج للشريعة الخاتمة يستدعى «التجديد» فيه، حتى لا ينسخها التطور ويطوى صفحتها.. ولأن «عالمية» هذه الشريعة الخاتمة تستدعى، هى الأخرى، «التجديد» الذى يستجيب لجديد الأمم والبقاع والعادات والأعراف.. وعن هذه «السنة.. والقانون»، يقول رسول الله، ﷺ: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها[1]».. فبه تتم «أسلمة الجديد».. وبه

(١) رواه أبو داود.

تتجدد المنابع ، عندما تُزال عنها طوارئ البدع التى تحد من فاعليتها فى التوليد والإبداع ..

وفى هذا النموذج الثقافى الإسلامى ، أيضا ، يبلغ «الاجتهاد» مرتبة الفريضة ، ولا يقف عند مجرد كونه حقا من الحقوق ! ..

وبجناحى «التجديد» و «الاجتهاد» يحلق العقل العربى والمسلم ، عبر الزمان والمكان ، ملتزما المعالم والمنارات التى مثلت وتمثل خصائص النموذج الثقافى الإسلامى - والتى أشرنا إلى نماذج هامة منها - فيعيش «الحاضر» ، ويستشرف «المستقبل» ، دون أن يقع فى إفراط الجمود والتقليد ، أو تفريط القطيعة مع المنابع والثوابت والأصول ..

* * *

وإذا كانت «الحاجة» هى أم «الاختراع» ، و «الضرورة» هى الحافز على «الإبداع» ، فإن الإيمان بوجود خصوصية للنموذج الثقافى الاسلامى ، تميزه عن «الآخر» هى الحافز على التوليد والإبداع فى النموذج الثقافى .. وبدون الإيمان بهذه الخصوصية ، فإن الكسل العقلى سيغرقنا فى مستنقع التقليد .. تقليد الماضى ، والجمود على تجارب أهله .. أو تقليد «الآخر» ، والجمود على نماذجه ، والقطيعة المعرفية مع نموذجنا الثقافى العربى الإسلامى وماله من خصوصيات . والله أعلم .

الفهرس

تمهيد ٣

الذات .. والآخر .. ثقافيا ٥

خصائص النموذج الثقافي الإسلامي ١٠

١ – التوحيد ١٤

٢ – والاستخلاف .. والخلافة ١٨

٣ – والتعددية ٢٣

٤ – ودوائر الانتماء ٢٨

٥ – ومصادر والمعرفة ٣٣

٦ – وسبل المعرفة ٣٧

٧ – والعقلانية المؤمنة ٣٨

٨ – ومكانة المرأة من الرجل ٤١

٩ – والذات .. والآخر ٤٣

١٠ – والتجديد والاجتهاد ٤٥

إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامي للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشري .
- د . حسن الشافعي
- د . محمد سليم العوا .
- ا . فهمي هويدي
- د . جمال الدين عطية .
- د . سيد دسوقي
- د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر